تاريخ العرب والعالم

مجلة مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الواحدة والثلاثون - المجلد ٣٥ - العدد ٢٤٩ -كانون الثاني - شباط ٢٠١١ م الموافق صفر - ربيع الاول ١٤٣٢هـ

- الشاعر محمد يوسف حمود
- صيدا في العصور الفارسية
- مقررات سينودس الشرق الأوسط
- تطور وضعية الوقف في المغرب الإسلامي

أدوات الكتابة وموادها ومواضيعها عند العرب (قبل الإسلام)

محمد ذنون زينو الصائغ



كانت الكتابة موجودة عند العرب قبل الإسلام، واستدلّ على ذلك من نصوص الشعر الجاهلي بشكل خاص واللغة العربية وتاريخها بشكل عام، فالشاعر لبيد بن ربيعة يصف الأطلال في إحدى قصائده قائلاً:

وجلا السيول عن الطلول كأنها — زُبُر تجد متونها أقلام

ويعني بالسيول قد كشفت أطلال الديار فأظهرته بعد ستر التراب لها، فكأنّ الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها، أي أن الشاعر لبيد شبه كشف السيول عن الأطلال التي غطاها التراب بتجديد الكتاب المندرس، وظهور الأطلال بعد دروسها بظهور السطور بعد اندراسها .

يقول الجاحظ في كتابه الشهير (الحيوان) حول أدوات الكتابة وموادها عند العرب قبل الإسلام: (كانوا يجعلون حفراً في الصخور ونقشاً على الحجارة وحلقة مركبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتئ، وربما كان الكتاب هو الحفر إذا كان تاريخياً لأمر جسيم أو عهداً لأمر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب وعلى الركن المشقر وعلى الأبلق الفرد وعلى باب الرها، يعمدون إلى الأماكن المشهورة والمواضع المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور وأمنعها من الدروس، وأجدر أن يراها من مرّ بها ولا تنسى على وجه الدهر) .

وقيل في أدلة وجود الكتابة عند العرب قبل الإسلام ما ورد في لغتهم من الألفاظ الموضوعة لأدواتها وموادها، فلو أنّهم لم يعرفوها لما وضعوا تلك الألفاظ لمعانيها، زمن هذه الألفاظ: الدواة وجمعها دوى ودويات

ودوى. وقولهم لموضع المليق خطأ والصواب ملاقة، لأن المليق ميمة زائدة وهو من لقْتُ الدواة أليقها وألقها، والمليق اسم القطنَ أو الصوف الذي يلصق به المداد، وهو من قولك لاق به الشيء يليق إذا لصقت به فلا تدخل ميم زائدة على ميم أخرى مزيدة، وسمي المداد مداداً لأنه يمد الكاتب، ومددت الدواة صببت فيها ماء ومدها، وتقول مُدَّني أي أعطني مدّة من الدواة، وقد خثرت الدواة خثورة وخثارة إذا ثخن نقسها وهو المداد، ويقال نقس وانقاس لقطع منه، والقلم قبل أن تبريه أبوبة فإذا بريته فهو قلم، وما يسقط منه عند البري البُراية، وبطنت القلم رققت بطنه، وأنفتّه حددت طرفه وشباته حدّه، وليّطته إذا وضعت في شقه ليطة توسع بها ضيقة، والليطة قشر القصب، وقططته قطاً، والمقط ما يُقط عليه، والقط القطع عرضاً، والقد أن يقطع الشيء طولاً، ويقولون قلم رشاش وذلك إذا حاف الشق على أحد جانبيه فدق وتعثر بشظايا الكتاب، ورشش المداد، وتقول كتبت كتاباً وهو مصدر، ثم يسمى المكتوب على السعة كتاباً، والكتابة صناعة الكاتب، والطرّس الكتاب الممحو الذي يستطاع أن تعاد فيه الكتابة، والتطريس فعلك به، والطلس باللام كتاب لم ينعم محوه فيصير طرساً، والمجمجة تخليط الكتاب وإفساده كالجَمْجَمة باللسان وهو أن لا يبين الكلام، والصحف ما كان من جلود، والقط الكتاب، والمجلة صحيفة كانوا يكتبون فيها الحكمة، قال النابغة:

مجلّتهم ذات الإله ودينهم
قويم به يرجون خير العواقب

فأمّا المحبرة والحبرية فالتي فيها الحبر وهو الزاج، ولها المعلاق وهو خيط أو سير يشدها إلى عراها، والرشق صوت القلم، والفشفة كقطنة في جوف القصبة، وحَضْرَمَ القلم براه، والمرقم القلم.. ومثل ذلك كثير في كتب اللغة والادب، لا سيما كتاب (أدب الكتاب للصولي)، حيث ذكر فيه كل ما يتعلق بهذه الصناعة .

كان العرب بادئ الأمر يستعملون لب الجريد الأخضر في الكتابة، ثم اتخذوا الأقلام من القصب بعد ذلك، وأجود أنواع القصب هو (الفارسي) ويزرع في بلاد العجم والهند، ويكون صلباً قوياً مدوراً سليماً غير معقد ولون بشرته أحمر ضارباً للسواد. واستخدم العرب أيضاً في الكتابة ورق البردي المصنوع في مصر وتسمى القطعة من ذاك الورق (طوماراً)، وأيضاً كتبوا على الرق ×.. فلم يكن للعرب قبل الإسلام القرطاس المعهود اليوم، وإنما يظهر هذا عند العرب سنة العشرين بعد المائة من الهجرة النبوية، وكان القرطاس عندهم يومئذ كل ما يمكن أن يكتب عليه كالرق وهو جلد رقيق تحسن الكتابة عليه وهو أغلب قراطيسهم، وكانوا يكتبون على العسب والجريد وما شاكل ذلك، وكانوا سمون ما يكتب (مهرقاً وصحيفة وسفراً)، وورد ذكر القرطاس والرق والصحف... وغيرها في القرآن الكريم×× مما يدل على معرفة العرب بها قبل الإسلام. وكانت العرب تشبّه المنزل إذا خلت ودرجت عليه الريح وصار أرضاً بـ (المُهرق)، وللأعشى في هذا بيتان يقول فيهما:

سلا دار ليلى هل تبين فتنطق
وأنى ترد القول بيضاء سملق؟
وأنى ترد القول دارٌ كأنها
لطول بلاها والتقادم مُهرَق

وشبه أبو النوّاس الناقة البيضاء بالقرطاس




□ أدوات الكتابة عند العرب

فقال في أحد أبياته (يقق×××× كقرطاس الوليد هجان)، فخص قرطاس الوليد لانه لم يكتب فيه بعد، أما الهجان فهي الكرام من الإبل ...

يقول الجاحظ: لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك وكل إقطاع وكل إنفاق وكل أمان وكل عهد وعقد وكل جوار وحلف، ولتعظيم ذلك والثقة به والاستناد إليه يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر وبعيداً عن النسيان، ولذلك قال الحارث بن حلزة في شأن بكر وتغلب:

واذكروا حلف ذي المجاز وما
قدَّم فيه العهود والكُفلاء
حذر الجور والتعدي وهل
ينقص ما في المهارق الأهواء

والمهارق هنا لا يراد بها الصحف والكتب ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان .

ومما قالته العرب في الخط وأدواته ما أنشدنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال: قال المقنع الكندي في قصيدة له مدح فيها الوليد بن يزيد:

كالخط في كتف الغلام أجاده
بمداده وأسدً من أقلامه
قلم كخرطوم الحمامة مائل
مستحفظ للعلم من علامه

يسم الحروف إذا يشاء بناءها
لبيانها بالنقط من أرسامه
من صوفةٍ نفث المراد سخامه
حتى تغير لونها بسخامه
يحفى فيقصم من شعيرة أنفه
كقلامة الاظفور من قلامه
وبأنفه شق تلاءم فاستوى
سُقي المداد فزاد في تلامه
مستعجم وهو الفصيح بكل ما
نطق اللسان به على استعجامه
وله تراجمة بألسنة لهم
تبيان ما يتلون من ترجامه
ما خط من شيء به كتابه
ما أن يبوح به على استكتامه
وهجاؤه قاف ولام بعدها
ميم معلقة بأسفل لامه

ويضيف الجاحظ في كتاب الحيوان: (بأن كل أمة قد اعتمدت في استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك ديوانها، وعلى أن الشعر يفيد فضيلة البيان) .

وعلى الرغم من أن العرب في الجاهلية قد استخدموا الشعر بدل التدوين للحفظ، إلا أن الشعر كان من بين أهم المواضيع التي دونتها العرب قبل الإسلام. فحماد الراوية قال عن النعمان ابن المنذر المتنصر بأنه (أمر أن تنسخ له أشعار العرب في الطنوج ثم دفنها في قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي وهو أبو إسحاق المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي الذي يطوى بساط أيامه في أيامه في القرن الأول من الهجرة في عهد الأميين، قيل له إن تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الأشعار) .

كان خير الكلام عند العرب ما أدى المقصود بكماله بلفظ وجيز وعبارة مختصرة، ومدار البلاغة عندهم علي ذلك. والكتب والمراسلات من ضروريات الامم التي لا يمكن الاستغناء عنها، وحيث إنّ الكتابة لم تكن في جميع العرب لقربهم يومئذ من البداوة، قل الترسل فيما بينهم تحريراً قبل شيوع الكتابة فيهم بعد الإسلام، وكانوا يستغنون عن ذلك بإرسال الرسل يبلغون عنهم مقاصدهم إلى من يرومون، وربما ألغزوا عنها إخفاءاً لها إذا كانت مما يجب إخفاؤه وإسراره، فيكتبوا أبياتاً من الشعر تؤدي مقاصدهم، ومن ذلك ما ذكر في كتاب (مروج الذهب) عند ذكر سابور ذي الاكتاف وغلبة العرب على سواد العراق، قال: وكانت جمهرة العرب ممن غلب على العراق ولد إياد بن نزار، وكان يقال لها طبق، لإطباقها على البلاد وملكها يومئذ الحرث بن الأغر الايادي، فلما بلغ سابور من السن ست عشرة سنة أعدّ للخروج إليهم والإيقاع بهم، وكانت إياد تصيف بالجزيرة وتشتو بالعراق . وكان في حبس سابور رجل منهم يقال له لقيط، فكتب إلى إياد شعراً ينذرهم به ويعلمهم خبر من يقصدهم، قال لهم فيه:

سلام في الصحيفة من لقيط
على من في الجزيرة من إياد
بأن الليث يأتيكم دلاقاً
فلا يحسبكم شوك القتاد
أتاكم منهم سبعون ألفاً
يجرون الكتائب كالجراد
على خيل ستأتيكم فهذا
أوان هلاككم كهلاك عاد

ولم يعبأوا بكتابه الذي حمل تحذيره لهم وسراياهم تكر نحو العراق وتغير على السواد، فلما تجهز القوم نحوهم أعاد إليهم كتاباً يخبرهم بأن القوم قد عسكروا وتحشدوا لهم وأنهم سائرون إليهم، فكتب إليهم شعراً أوله:

يا دار عبلة من تذكارها الجزعا
هيّجت لي الهم والأحزان والوجعا
أبلغ دار إياداً وحلل في سراتهم
إنّي أرى الرأي إن لم أعصَ قد نصعا
أن لا تخافون قوماً (لا أبالكم)
مشوا إليكم كأمثال الدبى سرعا
لو أنّ جمعهم راموا بهدتهم
شم الشماريخ من نهلان لا نصدعا
فقلدوا أمركم لله دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

فأوقع بهم فعمهم القتل وما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم، وخلع بعد ذلك أكتاف العرب فسمي سابور ذا الأكتاف .

وفي كتب الأدب ومراجع التاريخ من مثل هذه الروايات منها (صحيفة المتلمس) الشهيرة... ولا يسعنا ذكرها بل ذكرنا الرواية السابقة لتوضيح ما نحن بصدد الحديث عنه في أدوات الكتابة وموادها عند العرب قبل الإسلام فضلاً عن المواضيع التي كتبوا فيها.

وللعرب قبل الإسلام أسلوب في الكتابة، أي ما يطلق عليه في وقتنا هذا بأدب المراسلات والمخاطبات، فقد كانوا يبتدئون كتبهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى ثم يذكرون مقاصدهم، وكانت قريش تكتب (باسمك اللهم)، ونقل المسعودي في (المروج) عن جماعة منهم ابن السائب الكلبي أنّ أوّل من كتب من قريش (باسمك اللهم) أمية بن أبي الطلت الثقفي وذكر في سبب ذلك قصة طويلة... وعن أبي حاتم السجستاني في كتاب (المعمرين) عند ذكر قس بن ساعدة أنّه أوّل من آمن بالبعث من أهل الجاهلية وأول من توكأ على عصا وأوّل من قال: أمّا بعد، وهو أوّل من كتب من فلان ابن فلان... ورجح الصولي بأنّ أوّل من قال (أمّا بعد) كعب بن لؤي، وكان أوّل من سمّى (الجمعة) وكانت تسمى (العروبة) قال: وهي فصل الخطاب، ومعنى ذلك أنّها تأتي بعد قولهم من فلان ابن فلان إلى فلان، أو بعد حمد الله أو بعد الدعاء، فيفصل بها بين الخطاب المتقدم وبين الخطاب الذي يليه.

المصادر والهوامش

- السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عني بشرحه وضبطه وتصحيحه محمد بهجة الأثري، الجزء ٣، ط ٢، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٤٢هـ- ١٩٢٤م، ص ٤٠.
- أبي عثمان عمر بن بحر بن محبوب الجاحظ، الحيوان، شرح وتحقيق د. يحيى الشامي، المجلد ١، ط١، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦، ص ٤٨.
- السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب،ص ٣٧٢.
- الخطاط وليد الأعظمي، تراجم خطاطي بغداد المعاصرين، ط١، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٧، ص ٣٥ و ٥٧.

× الرق: جلود الحيوانات كالغزلان والماعز

×× على سبيل المثال وليس الحصر وردت لفظة القرطاس وقراطيس في الآيات ٧ و ٩١ من سورة الأنعام، ولفظة رق في الآية ٣ من سورة الطور، ولفظة الصحف وبصحاف وصحفاً في الآيات ١٣٣ من سورة طه، والآية ٧١ من سورة الزخرف، والآية ٥٢ من سورة المدثر.

××× السملق: القاع الصفصف

×××× يقق: أبيض شديد البياض

- السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مصدر سابق، ص ٢٧٨
- أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ص ٤٨
- نفس المصدر السابق، ص ٤٦
- نفس المصدر السابق، ص ٤٩
- الأب انستاس ماري الكرملي، فضل أهل العراق على سائر أقوام الآفاق في جمع شتات اللغة، مجلة لغة العرب، المجلد ١، العدد ١، ط٢، دار الحرية للطباعة، بغداد، تموز١٩١١، ص ١٠.
- السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مصدر سابق، ص ٣٧٢

××××× قوله يأتيكم دلاقاً أي مسرعاً مندفعاً، القتاد شجر صلب له شوك كالإبر ويضرب به المثل في الخشونة والشدة، أمّا الكتائب فهي جمع كتيبة وهي طائفة من الجند مجتمعة.

- السراة جمع سرى وهو الرئيس، ونصع الأمر إذا وضح، الدبى أصغر الجراد والنمل، الشماريخ رؤوس الجبال، نهلان جبل.

نفس المصد السابق، ص ٣٧٣.

نفس المصد السابق، ص ٣٧٥.

المراجع والمصادر

١ - أبي عثمان عمر بن بحر بن محبوب (الجاحظ)، الحيوان، شرح وتحقيق د. يحيى الشامي، المجلد ١، ط١، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦.

٢ - الأب انستاس ماري الكرملي، فضل أهل العراق على سائر أقوام الآفاق في جمع شتات اللغة، مجلة لغة العرب، المجلد ١، العدد ١، ط٢، دار الحرية للطباعة، بغداد، تموز١٩١١.

٣ - الخطاط وليد الأعظمي، تراجم خطاطي بغداد المعاصرين، ط١، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٧.

٤ - السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عني بشرحه وضبطه وتصحيحه محمد بهجة الأثري، الجزء ٣، ط ٢، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٤٢هـ- ١٩٢٤م.

❋ ❋ ❋

